المجلة المغربية للبحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية
ⵜⴰⵙⵖⵓⵏⵜⵜⴰⵎⵖⵔⴰⴱⵉⵃⵜⵏⵓⵔⵣⵣⵓⵅⵉⵜⵎⴰⵙⵙⴰⵏⵉⵏⵜⵉⵏⵀⵅⴰⵏⵉⵏⴷⵜⵉⵏⴰⵎⵓⵏⵉⵏ
Moroccan Journal of Research in Human and Social Sciences
Volume 02 Numéro 01 (Juin 2023) pp. 55-81

ظاهرة "التصفيح": دراسة في العادات والتقاليد التونسية

The phenomenon of "Tasfih": research study at Tunisian customs and traditions

دة. رحمة بن سليمان[1]

ملخص

تحاول هذه الورقة أن تكشف على جزء من تفاصيل الممارسة الاجتماعية المتمثّلة في التصفيح. حيث أردنا من خلال دراسة ميدانية أجريناها مع فئة من النساء سواء ممن قمنا بإجراء عملية التصفيح أو الاتي يقمن بهذه الممارسة. تُحاول هذه الدراسة أن تقف عند علاقة التصفيح كممارسة بالتنشئة الاجتماعية والثقافة المتوارثة في التفكير الجمعي. كما أردنا التوقف عند النجاعة الرمزيّة لممارسات التصفيح وكيفية اشتغال هذا النسق البنيوي من خلال شِدّة الاعتقاد في مختلف مكوناته الطقوسيّة وكيف يؤثّر ذلك في الجهاز العصبي للفتاة وبالتالي في أعضائها الجسديّة فتتقلّص العضلات وفق هذا النسق وتتمدّد، ممّا يحدث نوع من التشنّج العضلي على مستوى الجهاز التناسلي. كما تمّ التركيز على الوظائف الاجتماعية لهذه الظاهرة وأصولها الأنتروبولوجية.

الكلمات المفاتيح: التصفيح؛ المعتقدات، الطقوس، النجاعة الرمزية

Abstract

Abstract : This paper attempts to reveal part of the details of the social practice of lamination. We wanted to do a field study that we did with a group of women who either did the lamination or who did the practice. This study attempts to stand in the lamination relationship as a practice of socialization and culture inherited in collective thinking. We also wanted to stop at the Symbolic effectiveness of lamination practices and how this structural pattern works through the intensity of belief in its various ritualistic components and how this affects a girl's nervous system and There fore her physical organs. Muscles shrink according to this pattern and extend, causing some kind of muscle convulsion at the level of the reproductive system. Emphasis has also been placed on the social functions of this phenomenon and its anthropological origins.

Keywords : Lamination, Beliefs, rituals, symbolic efficacy

[1] قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس

https://revues.imist.ma/index.php/RMRSHS
ISSN: 2820-7297

مقدّمة

سنحاول من خلال هذه الدراسة البحث في واحدة من الممارسات الثقافيّة المنتشرة في البلدان المغاربيّة، بخصوصياتها المختلفة وغاياتها الموحّدة حيث مثّلت عادات وتقاليد مشبعة بطقوس مغرقة في الرمزيّة وتعرف "بالتصفيح"، وسيكون تركيز اهتمامنا البحثي في مجال البلاد التونسيّة ومختلف جهاتها، حيث ساهم الميدان، ضمن هذا الخيار البحثي، في تجميع معطيات نزعم أنّها مهمّة من أجل فهم رموز هذه الممارسات الطقوسيّة. اخترنا لهذه الدراسة أن تكون كيفيّة تعتمد على تقنية المقابلة المفتوحة وذلك حتّى نتمكّن من فهم وتأويل مجمل التمثلات والتصورات المحيطة بالظاهرة للإجابة عن إشكاليّتنا البحثيّة.

تتضمّن الحياة اليوميّة العديد من الممارسات الطقوسيّة المتجذّرة في المنظومة الثقافيّة والاجتماعيّة للأفراد والتي تحافظ على استمراريتها عادة من خلال توارثها عبر التنشئة الاجتماعيّة وتناقلها، إذ يقول **"**بيار أنصار" **(Pierre Ansart)**: "إنّ المجتمعات سواء الحديثة منها أو التقليدية أو تلك المسمّاة بلا كتابة، تنتج دوما متخيلات**(des imaginaires)** لتعيش بها وتبني من خلالها رموزها وصورها عن نفسها وعن الأشياء والعالم، وبواسطتها تحدد أنظمة عيشها الجماعي ومعاييرها الخاصّة" (ansart, 1977, p. 21) .

وتندرج ظاهرة التصفيح ضمن هذه الممارسات الطقوسية التي تُمارس على جسد الفتاة الصغيرة قبل وصولها مرحلة البلوغ بغاية غلق عذريتها رمزيا، ذلك من أجل منع ولوج ذكر الرجل في العضو التناسلي للمرأة، وبالتالي تتمكّن الفتاة من المحافظة على سلامة عذريّتها التي تعتبر اجتماعيا رمزا للشرف حتى ليلة الزفاف، متى يمارس على جسد الفتاة نفس الممارسات الطقوسية ولكن بشكل عكسي بغاية فتح العذرية رمزيا لتصبح قابلة لعملية الولوج الجنسية. في هذا الإطار تطرح اشكاليتنا البحثيّة التي تتمثّل في ارتباط سلامة العذريّة وتلطيخ قميص العروس بدماء البكارة رمزا للشرف العائلي الذي أصبح رمزيا "مُصان" كما يطلق عليه في المنطوق الشعبي والمتعارف عليه، حيث تساعد عمليّة التصفيح العائلة في تقليص حمل الرقابة عن الفتاة. هذا الطرح يسمح لنا بالتساؤل عن كيفية اعتقاد العائلة في عمليّة

التصفيح لحفظ عذرية الفتاة والحال أنّ هذه العمليّة تساهم بشكل أو بآخر في تقديم "ضمانات" للفتاة من أجل إقامة علاقات خارج الأطر الرسميّة للزواج؟ فماهي هذه الممارسات الطقوسية؟ وإلى أيّ مدى يمكن أن تكون ذات نجاعة رمزية-5 .Lévi-Strauss , 1958, pp) (27 حسب تعبير الأنتروبولوجي كلود لوفي-ستروس (**Claude Lévi-Strauss**). سنحاول فهم كل ذلك من خلال المقاربة الأنتروبولوجية لكلود لوفي ستروس، وأيضا على ضوء جملة من المفاهيم التي نزعم أنها ستزيل "السحر" والغموض عن هذه الممارسات وتساعدنا عن فهم مختلف ميكانيزماتها.

الشبكة المفاهيميّة

ولعلّه من بين أهم المفاهيم التي تهمّ هذه الدراسة هو مفهوم "التصفيح" هذا المفهوم الاجرائي والذي يقصد به اصطلاحا في معجم المعاني الجامع "تجهَّزَ بآلة التصفيح ليصفّح السفينة وهي آلة وضع صفائح من فولاذ لحمايتها" كما تستعمل كلمة تصفيح عادة للحديث عن تصفيح الدواب من حصان وحمار وبغال ويقصد بذلك تركيب صفائح من حديد بأسفل الحافر وتكون في شكل هلال وذلك لمنع الاحتكاك المباشر بالأرض عند التنقّل حتى لا يلحق بالحافر ضرر كأن تحدث به جروح فيتورّم. إلاّ أنّ الكلمة تمّ اقتباسها لتستخدم في أداء معاني أخرى من بينها التعبير عن الممارسات الطقوسيّة السحريّة التي تتوسّل بها فئات اجتماعيّة معيّنة لغلق غشاء البكارة رمزيا بتصفيحه ومنع اختراقه من قبل ذكر الرجل، فالبعد الرمزي لكلمة تصفيح هو الحماية من الأضرار والتلف. وعلى اعتبار أنّ هذه الممارسات تمثّل مجموعة من الطقوس فمن الضروري البحث في مفهوم الطقس والتعريف به، هذا وسيساعدنا على سبر أغوار هذه الممارسات من منطلق أنتروبولوجي إذ يعتبر الطقس قيام فرد أو أفراد بأفعال مصمّمة بهدف التعبير عن طائفة من المعاني يخترقها محتوى رمزي، وتتقيّد إلى حدّ كبير بطابع هذا المحتوى. وحين تؤدّي هذه الأفعال في مناسبات متلاحقة، ستكون صارمة ومقبولة. كما يعتبر برونيسلاو كاسبار مالينفوسكي (**Bronislaw Kasper**

Malinowski) أن الطقس ينفس عن القلق الذي ينشأ بسبب الأنشطة الخطيرة والمحفوفة بالمجازفة. ويستند هذا الرأي لمفهوم فرويد للطقس على أنّه صورة جمعية للسلوك الاستحواذي للعصاب القهري الذي يتسامى من خلال الطقس بدوافع عاطفيّة لا تحظى بالقبول (بونت، 2007، صفحة 611). كما يشير عالم الاجتماع ايرفنق قوفمان (**Erving Gofman**) الى طقوس التفاعل في الحياة اليومية (**rites d'interaction**) ضمن مقارباته السوسيولوجية للممارسات "البسيطة" في حياة الناس اليومية، مبيّنا ما يقع فيها من انتظام، وما تختفي من وراءها من نظم رمزية تسيّر عمليات التواصل الأكثر شيوعا بين الأفراد في الحياة اليومية. وتكمن فائدة أعمال "قوفمان" في أنّه كشف عمّا وراء "فوضى" الممارسات اليومية، من أنشطة منتظمة، ينخرط فيها الناس ويتقيّدون بها دون أن ينتبهوا إلى ما فيها من انتظام رمزي، كما بيّن "قوفمان" أنّ الناس كائنات طقوسية بكلّ امتياز ولا يمكنهم العيش معا إلاّ بواسطة طقوس تنظم مبادلاتهم الرمزية المختلفة. فالمجتمع مسرح يومي تُؤدّى فيه الأدوار منتظمة وفق طقوس تفاعلية لا تستوي الحياة الجماعية بدونها، وضمن هذه "اللعبة" يملأ كل فرد موقعا له ضمن مسرح المكانات، محافظا خلال ذلك على مقامه ومكانته أو على ما يسمّيه "قوفمان" بـ"ماء الوجه". فالمحافظة على هذا "الماء" أساسية ضمن قواعد التفاعل البشري، والحياة الجماعية إنّما تنهض على ضروب من المجازات المسرحية (**métaphores théâtrales**)التي تؤدى وفقها التفاعلات في الحياة اليومية (المحواشي، 2010، الصفحات 15-43). يمكن القول هنا بأنّ الطقوس غالبا ما تستمدّ أهميّتها من شدّة اعتقاد الأفراد فيها والايمان بها حيث يرتبط ذلك أيضا بمدى نجاعتها وتأثيرها في حياتهم، لذلك نرى من الضروري تقديم تعريف مناسب لمفهوم المعتقد على اعتبار أنّه لا يوجد مجتمع دون منظومة معتقدات، وقد لا تختلف المجتمعات فيما بينها إلاّ بفحوى معتقداتها، وقد يؤمن الناس بطريقة متماثلة. المعتقد هو إيمان ناشئ عن مصدر لا شعوري يكره الانسان على تصديق فكر أو رأي أو تأويل أو مذهب جزافا، وسوف نرى أنّ العقل غريب عن تكوين المعتقد، ولا يأخذ العقل في تبرير المعتقد إلاّ بعد أن يتمّ تكوينه. يجب أن نصف بالمعتقد كل

ما هو من عمل الايمان، ومتى استعان المرء في تحقيق صحة المعتقد بالتأمّل والتجربة لا يظل المعتقد معتقدا، بل يصبح معرفة (لوبون، 2012، صفحة 17).

وبما أننّا سنتطرّق إلى كيفيّة اشتغال هذه الطقوس دون فصلها عن معتقدات الأفراد فقد يفضي بنا ذلك كضرورة علميّة للتطرّق إلى مفهوم النجاعة الرمزيّة هذا المفهوم الذي أسسه الأنتربولوجي كلود-لوفي ستروس ويمثّل فكرة تشكيل مسار بين المعتقدات العقلانية وغير العقلانية. ووفقا لهذا المفهوم، فإن المعتقدات ليست مفهومة من تلقاء نفسها، بل هي تعكس علاقة بالعالم تسود فيها مسألة المعنى. في هذا السياق، يهتم المفهوم الرمزي للمعتقدات بشكل الرسالة أكثر من اهتمامه بمحتواها الصريح، بالطريقة التي تقال بها الأشياء أو تصورها أكثر من الرسالة نفسها، تم التعبير عن ذلك جيدًا بشكل خاص من قبل كلود ليفي شتراوس في ختام كتابه (sanchez, 2007, pp. 433-464) **L' Homme nu: "le rituel parle beaucoup**. كما ارتأينا أنّ التعريف بمفهوم السحر يعدّ مهمّا جدّا حتى نتمكّن من فصل هذه الممارسات التي سنسعى لتفسيرها بطريقة علمية عن المعتقد الغالب على الوعي الجمعي والذي يعتبر أنّ هناك قوى غيبيّة متحكّمة في هذه الممارسات، إذ يعتبر مفهوم السحر حسب مارسال موس **(Marcel Mauss)** أنّه يتألف من علوم ومعتقدات وممارسات مشتركة، تتولّد من حاجة التأثير على قوى غامضة ومجهولة ملازمة للطبيعة أو لبعض الأشخاص مثل "المانا".**(Le Mana)** ويتمّ العمل على معالجة هذه القوى أو الإمساك بها وتسخيرها، إذ هناك ممارسات مسمات سحريّة داخل ثقافة معينة تُظهر كيف ينتظم العالم. كان جامس جورج فرايزر **(James George Frazer)** قد ميّز السحر المداوي التجانسي أو المقلد " كل شبيه يستدعي شبيهه" عن السحر المعدي "إن الأشياء التي كانت على اتصال تستمر في التأثير على بعضها البعض عن بعد (المحواشي، 2010).

كما تأخذنا خصوصيّة الدراسة البحثيّة إلى البحث في مفهوم الشرف لأنه يلامس بشكل مباشر الغاية من ممارسة هذه الطقوس لدى البعض من الفئات الاجتماعيّة، إذ شغلت

فكرة الشرف مكانة مركزيّة في الدراسات الأنتروبولوجية الأنغلوسكسونية المكرسة للمجتمعات المتوسّطيّة. تشكل هذه الفكرة في الواقع أداة قيمة من أجل مقاربة المجتمعات المختلفة لهذه المنطقة فيما بينها لكن التباس مضمونها قد طرح مشاكل السخاء، الرأفة الاعتدال، النبل، والمهابة. هكذا ترسم هذه العبارات ملامح حقل معجمي أكثر بكثير ممّا تسمح بتحديد مفهوم محلي أو تعريف فكرة أنتروبولوجيّة. لقد أُعتبر الشرف مثالا للمساواة كمبدأ للمساواة لا علاقة له بالسلطة الاقتصادية أو السياسة أنّه يرتبط بأخلاقية للنزاهة لنبل الجسد والروح وعلى العكس يعتبر إنّ الشرف هو وثيق الارتباط بالثروة حتى أنه يظهر كأحد عوامل التراتبيّة الاجتماعية. لقد بيّن "بيار بورديو" إلى أي درجة تتناقض رهانات الشرف مع المثال الأعلى للمساواة في المجتمع القبائلي. يتعلّق شرف فئة عائليّة في حوض المتوسّط بحالة توازن بين طهارة الدم النسبيّة من جهة واعتبار الاسم من جهة أخرى. يسخّر كل شيء داخل الفئة لتأمين هذا التوازن، يسهر كل من الجنسين على أن يتصرّف الآخر بكامل الاحترام للتقاليد يسهر الرجال على احترام الحشمة الجنسيّة للنساء من أجل ألاّ تفسد طهارة نسبهم وتحثّ النساء الرجال على عدم الإساءة إلى سمعتهنّ. إنّ فقدان الشرف يولّد العار هكذا يمكن أن نجبر المجموعة على إعادة التوازن المفقود بالقوّة أو بالحيلة لأجل قصير المدى نوعا ما (بونت، 2007، الصفحات 583-584).

أولا: التحريم الاجتماعي للعلاقات الجنسية للفتاة قبل الزواج

يُمثّل الجنس بالنسبة الى المجتمعات العربية أحد الثالوث المُحرّم بتعبير 'بوعلي ياسين (بوعلي، 1978) ' حيث لا يزال من التابوهات واللامسموح بتداوله سواء بين الافراد أو العائلات أو حتى ضمن المواضيع ذات الصلة بالعلاقات الاجتماعية والتنشئة. حيث تلعب 'ذهنيّة التحريم 'أدوارا محورية في عملية إدراج مسألة العلاقات الجنسية وما يحوم حولها من معطيات، ضمن دائرة الخاص جدا والمسكوت عنه. في هذا الاتجاه، يُمثّل مفهوم التصفيح كممارسة وموروث تاريخي أنثروبولوجي ثقافة متوارثة، مشروعا غير قابل للتداول البحثي إلا ضمن دائرة خاصة جدا من العلاقات والاختصاص.

- **التنشئة الاجتماعية للفتاة: خصوصية المركز والدور**

تلعب التنشئة الاجتماعية دورا مركزيا ونقطة الانطلاق في عملية فهم تمثلات الأفراد والجماعات للممارسات والطقوس والعادات. حيث تضطلع عملية التنشئة كمسار من التلقين والتثقيف والتدرب، على تغذية اقتناع الأفراد وتبنّيهم لمفاهيم وممارسات معيّنة. ضمن هذه التنشئة، يندرج 'التصفيح' كممارسة متوارثة ولا زالت مستمرة عند بعض العائلات التونسية التي تعتبرها صمام أمام لعذرية الفتاة ولشرف العائلة ولقدرتها على خلق علاقات سويّة نفسيا واجتماعيا.

من المفيد في هذا البحث أن ننطلق من مكانة المرأة ككائن خاضع داخل المجتمعات العربية من خلال تموقعها الدوني والمهمش في شبكة العلاقات والتفاعلات بين الأفراد، فهي تصنّف في هذا النسيج الاجتماعي ضمن المخلوقات الضعيفة والهشة والقاصرة والمعدمة. فإنجاب الانثى وسط العائلات العربية كانت مجلبة للعار وتُستقبل بسخط للأم وغضب للأب فتنشئة الفتاة لا تخلو من متاعب وشقاء، فهي كتلة من الهموم والمتاعب المستمرة والرقابة المتواصلة. عديدة هي الأمثلة الشعبية التي أكدت هذه المجتمعات للفتاة ومنها "**اللي عندو طفلة في الدارعندو كوشة من النار**"[(2)] فهي تمثل الجحيم والعذاب داخل العائلات الأبوية.

يدل ذلك على أن كيان المرأة محصور في حدود الجسد مما خلق ربطا بين جسدها وشرف العائلة "**يسخر كل شيء داخل الفئة لتأمين هذا التوازن، فيسهر كل من الجنسين على أن يتصرف الآخر بكامل الاحترام للتقاليد، فيحترم الرجال الحشمة الجنسية للنساء، من أجل ألا يفسد طهارة نسبهم...ففقدان الشرف يولد العار"**، حيث حرمت عليها العلاقات الجنسية خارج مؤسسة الزواج، فإن أهدرت الفتاة عذريتها قبل الزواج فحتما

(2) "من له فتاة بالبيت، له موقد من نار" هو مثل شعبي متداول يعكس التمثلات حول خطورة وجود فتاة بالمنزل نظرا لأنها تحمل رمز الشرف العائلي.

سوف تلاقي حتفها ويكون مصيرها القتل. فقد جاء على لسان امرأة أجريت معها مقابلة[3] "**في القديم كان الرجل عندما يدخل على زوجته ولا يجدها عذراء يلبسها كيسا من الليف ويُخرجها من البيت، فتجد أخاها في انتظارها ويطلق عليها الناروبغسل بذلك العار**." فهذا الارتباط الوثيق بين الشرف والعذرية يغذّي التحريم الاجتماعي للحياة الجنسية للفتاة خارج إطار الزواج، فمتى حافظت الفتاة على هذه العذرية فإنها تصون شرف العائلة وإن فقدت بكارتها فإنها تلوّث سمعة العائلة المُتمثّلة في قطرات الدم التي تراق ليلة الزفاف وتحظى بطقوس احتفالية تختلف باختلاف المناطق والجهات فهنا نلاحظ أن ضرورة التشهير بين الناس بنتيجة هذا الامتحان الذي يكون بدرجة أولى للمرأة وبدرجة ثانية للعائلة.

فهذا الوازع الاحتفالي المتجذر لدى المجتمعات العربية ذات النظام الأبوي أفضى الى ضرورة تأطير الفتاة منذ نعومة أظافرها تأطيرا صارما يقوم على التنشئة الجنسية بالأساس على خلاف الفتى؛ حيث تسعى هذه العائلات إلى وضع منظومة أخلاقية تتربى وفقها الفتاة ضمانا لترسيخ هذه المعايير في ذاتها وتصبح الموجه الوحيد والأساسي في حياتها والمرجع المركزي الذي تنهل منه في معاملاتها مع الجنس الآخر وسلوكياتها، فهي تربى على ضرورة أن تكون محتشمة في لباسها وكلامها أي أن تخفض صوتها وتغطّي جسمها وتعتدل في مشيتها وهذا ما أكدته ابتسام الدريدي في كتابها(ben dridi, 2004) . فلا بد لها ألا تحتك بالجنس الأخر ولا تتعامل معه كما يقال في المثل الشعبي "بعّد الأنثى على الذكر ما تشوف شر" فهي هشّة وضعيفة الشخصية وربما تستميلها إغواء اتهم لذلك وجب إماتة كل الرغبات والعواطف الغريزية عموما والجنسية خصوصا التي تعمل لدى المرأة. ويتم ذلك على ضوء رقابة شديدة من العائلة، فالردع يكون مادي ومعنوي، وهو ما يتطلب جهود مضنية فكلما قمعت المرأة وفرضت عليها قيود كلما شعرت بقيمتها الجنسية بامتياز وتعززت لديها هذه الرغبة، فكل القوانين التربوية والبشرية الموظفة في التنشئة الجنسية للفتاة تعد مضادة لقوانين الطبيعة

(3) امرأة من اللاتي يمتهنّ ممارسة التصفيح على جسد الفتاة وهي تشتغل بفرقة نسائية للغناء أجرينا معها المقابلة بتاريخ 14 أفريل 2020 بمنزلها

مما يفضي إلى تراكم الهوس والمسؤولية لدى هذه المجتمعات التي تذهب الى بهم الى اختلال في الثقة بين العائلة والبنت بدرجة أولى وثقة العائلة بقدراتها بدرجة ثانية.

هذا ما سيحيلنا في هذه الدراسة الى الحديث عما سينتج عن انعدام الثقة الذي التمسناه لدى عدد من النسوة[4] اللاتي صرحن بأن "**لا يمكن أن تعطي ثقة عمياء في الفتاة، فعندما تكبروتشعرك بنضجها فسترمي بجميع العادات والتقاليد والأخلاقيات التي تربت عليها وهنا ليست لدينا ضمانات سوى اللجوء الى ما ورثناه عن أجدادنا من عادات وتقاليد**." فعدم الثقة هو ما يفرز استنجاد العائلة بالموروث التقليدي ليندمج التحريم الاجتماعي للنشاط الجنسي للفتاة خارد نطاق الزواج في إطار المعتقدات والطقوس.

- **معتقدات وطقوس سحرية "التصفيح" لحماية عذرية الفتاة قبل الزواج:**

لم تقتصر بعض العائلات التونسية في تربية الفتاة وتنشئتها على قوانين منع وتحريم العلاقات الجنسية فحسب، بل عمدت الى الموروث القديم للمعتقدات والطقوس لتحصين هذه البكارة وحمايتها. باعتبار أن الطقوس حسب تعريف مالينوفسكي- الذي قدمناه سابقا في بداية البحث- بأنّه يُنفّس على القلق الذي ينشأ بسبب الأنشطة الخطيرة والمحفوفة بالمجازفة. ويمكن أن نسحب ذلك على الطقوس التي تمارسها بعض العائلات التونسية التي تبرز خطورة فقدان العذرية مكانة متميّزة لارتباطها بالشرف الاجتماعي.

إن الطقوس الممارسة على جسد الفتاة تحدث نوعا من الراحة النفسية على هذه الفئة، تمارس من قبل بعض النسوة اللائي يحترفنها على جسد الفتاة البكر قبل سن البلوغ لحمايتها من أي اتصال جنسي كان بإرادتها أو بغير إرادتها وتمتد فاعلية هذه العملية إلى فترة الزواج فكل رجل يحاول أن يقيم علاقة جنسية مع فتاة مصفحة يصبح غير قادر على فل شيء. فهذه الطقوس التي تضمن سلامة بكارة الفتاة تعتمدها الأسر الأبوية لتقليص الرقابة على جسد الفتاة مهما كانت أخلاقها وتربيتها. فكأنها هنا تُقيّد العذرية وتطلق عنان الفتاة

[4] كل النساء المعنيات بفئة البحث واللاتي يمارسن طقوس التصفيح على جسد الفتاة

لتفعل ما تريد تحت ضمانات طقوسية موثوق بها. فالأسباب التي تدفع الى تصفيح الفتاة والاعتماد على هذه الطقوس التي يثقون بها هي عدم ثقتهم في جنس الأنثى، فهى ضعيفة ومصدر للإثارة والاغراء ما يعود عليها بالوقوع في فخ نصبته هي لنفسها، وبدرجة أولى يعكس فقدان العذرية فقدان شرف العائلة.

في مقابلة أجريناها مع امرأة[5] بزاوية 'سيدي البوراوي' بسوسة، وضحت أن "**الفتاة ضعيفة الشخصية ومرهفة الحس ولا يمكن أن تصمد أمام كلام الرجال وإغواءاتهم، فهى تربيها على القيم والمبادئ لكن في نفس الوقت لا أخاطر بمنحها الثقة. الانثى هي التي تمرّغ رأسنا في الوحل لذلك وجب تصفيحها فهى تثق بهذه العملية شديد الثقة.**"

وهنا نلاحظ مدى الاعتقاد في هذه الطقوس التي تعد بمثابة المنقذ لشرف العائلة، وقد أكّدت نفس المرأة السابقة مثلا شعبيا يلخص ذلك حيث قالت: "**اربط تلقى ما تحل**" فعملية الربط هنا التصفيح منذ الصغر أي قبل سن البلوغ وعملية "الحلان" هي تعد إخراج قميص الفتاة ليلة زفافها ملطخا بدم البكارة ليراه الجميع ويستقبل وسط الزغاريد وقرع الطبول وافتخار الأب وسط الجميع بسلامة شرف الفتاة، وبالتالي شرف العائلة. فهذا شاهد عيني وملموس على أن الفتاة لم تقم بأي علاقة جنسية في السابق فهناك مثل آخر يقول "**نهار صباح يبان الفلاح**"، فالصباح هنا يقصد به أول صباح تقضيه العروس في بيت زوجها كما يقصد به دم البكارة، فالتصفيح إذا يمنح العائلة ما يسمّى براحة البال فعندما تُزوّج البنت لا ينتاب عائلة العروس الخوف وحيرة الانتظار فالجميع متأكد من سلامتها لأنها منذ الصغر وإلى حد تلك الليلة كانت محصّنة بطقس التصفيح.

ونظرا لخطورة فقدان العذرية من خلال علاقة جنسية خارج مؤسسة الزواج تعمد العائلات الى تسخير جميع الجهود لردع الفتاة من خلال التنشئة والرقابة المستمرة واللجوء الى وضع مثل هذه المؤسسات الطقوسية لتصفيح هذه العذرية وجعلها غير قابلة للافتضاض

---

(5) هي مشرفة على ضريح مقام الولي الصالح سيدي بوراوي بمدينة سوسة من الجمهورية التونسيّة، أجرينا معها المقابلة بتاريخ 30 أفريل 2017

وعرقلة أي رجل يحاول إقامة علاقة جنسية مع فتاة مصفحة إذا لا يلحق بها ضرر. وقد تجلّت خطورة فقدان العذرية في ارتباطها بالشرف العائلي من خلال أغلب المقابلات التي ربطت فقدان العذرية بحتمية موت الفتاة لغسل العار. والتصفيح هو المانع الرئيسي من هذه المأساة والضامن الأساسي لردع خسائر هذه العلاقات الجنسية فقد أكدت امرأة أصيلة الجنوب التونسي أنه في السابق يدخل الرجل على زوجته في خيمة مخصصة لهما وإن لم يجدها عذراء يقوم بسحب الركيزة وهو عمود ترتكز عليه الخيمة فتسقط الخيمة كرمز يعبّر عن غضبه بذلك يسقط شرف العائلة التي تسب لها الفتاة ويصبح الأب والاخوة غير قادرين على مواجهة العشيرة أو القبيلة فقد لحقتهم المهانة وأصبح يطاردهم العار عبر أجيال فلا يتردد هذا الأخ في اطلاق النار عليها لقتلها.

فطقوس التصفيح لا تساوي شيأ أمام هذه الحوادث فالاعتقاد الجماعي في هذه الظاهرة الطقوسية يعززه ويدعمه هذه الأحداث الخطيرة وهذه الشواهد الميدانية التي نقلناها وحاولنا تحليلها تبيّن لنا أن لجوء العائلات الى التصفيح يدل على مدى التحريم الاجتماعي للعلاقات الجنسية خارج مؤسسة الزواج والخطورة التي تتعرض لها القيم والأخلاق وبالتالي شرف العائلة الذي تتحمله الفتاة في رمزية العذرية فهى ملزمة بالحفاظ عليها الى ليلة زفافها، فلا يمكن لرجل أن يفتضّها سوى زوجها وتقول الكاتبة داميا بن خويا: **"كم تكون خيبة أمل العائلة كبيرة عندما تغيب رؤية الدم بسبب من الأسباب ، كما أن الدم الذي يعطي الرجل ثقة بنفسه ويعد المرأة بالاطمئنان هو الذي يجعل العائلة في حالة هيجان هستيري عند رؤيته"** (بن خويا، 1995، صفحة 15)

ثانيا: التصفيح هو غلق رمزي للأعضاء الجنسية للفتاة وحماية العذرية رمزيا

أثبت العنصر السابق في تحليلنا أهمية البكارة لدى المجتمع التونسي للحفاظ على عذرية الفتاة حيث سعت هذه العائلات منذ القديم الى تنشئة الفتاة تنشئة جنسية وفق معايير موضوعية وجب اتباعها كما نهلوا من الموروث الجماعي طقوسا تحمي هذه العذرية

لارتباطها الوثيق بالشرف العائلي، كما لاحظنا، حيث عمدوا في أكثر الطقوس انتشارا وهو طقس التصفيح فأصبحت ظاهرة بارزة لديهم، هذا وقد كانوا يعتمدونها نظرا لإثبات التجربة جدواها وفاعليتها وهذا ما دفعنا للتعمق في البحث لنتبيّن مدى الجدوى الرمزية.

حتى نتمكن من محاولة تفسير على ضوء المنهج البنيوي لظاهرة التصفيح الطقوسية وجب تقديم تعريف للظاهرة ثم البحث على العناصر المكونة لها كنسق بنيوي ثابت في لا وعى الأفراد ثم البحث عن المشترك فيما بينها وبالتالي استخراج الأبعاد الرمزية لهذه العناصر واستخلاص المعنى من تحقيق الجدوى الرمزية.

- **التصفيح: طقوس سحرية ممارسة على جسد الفتاة:**

لعله من المفيد أن نُذكّر بتعريف مارسيل موس للسحر (بونت، 2007، صفحة 543)على أنه نظام استقراءات مسبقة يتم التوصل اليها تحت ضغط الحاجة. كما يتألف السحر من علوم ومعتقدات وممارسات مشتركة، فإن ظاهرة التصفيح يمكن ادراجها ضمن طقوس يعتقد فيها بعض النسوة اللاتي ينتمين للمجتمع التونسي تحديدا حيث تمارس على جسد الفتاة البكر قبل سن البلوغ لتغلق رمزيا عذريتها ويصبح أي رجل غير قادر على القيام بعلاقة جنسية مع فتاة مصفحة، وتحديدا غير قادر على "تكسيرها". وتنتهي فاعلية هذه العملية ليلة الزفاف متى يقمن النسوة بالفتح الرمزي للفتاة بطريقة عكسية لمراحل الغلق حتى يتمكن زوجها من افتضاض بكارتها واكتشاف عفّتها. وهذه الطقوس تمر بمراحل منظمة وبأدوات خاصة بهذه العملية. كما ترتبط هذه الطقوس بممارسات وبمنطوق لفظي تردده الفتاة لحظة العملية لكن طرق التصفيح تختلف باختلاف الوسائل المستعملة والمراحل التبعة فكل طريقة تتميّز بخصوصيتها رغم أن الهدف واحد.

❖ **في وصف ظاهرة التصفيح:**

حسب توصيف للمقابلة والملاحظة، تمكّنا من استقاء المعلومات التي ستمكننا من وصف طرق الممارسة في العملية الطقوسية للتصفيح بمراحلها وأقوالها وأدواتها الرمزية.

➢ التصفيح بالجروح:

لقد سعينا إلى حضور طقس من طقوس عملية التصفيح بالجروح على إثر مقابلة مع امرأة مقعدة تدعى صالحة [6]حدثتني عن هذه الممارسات ودعتني لحضور تصفيح حفيدتها، وضربت لي موعدا. تجلس الفتاة على مهراس نحاسي وقد قُلب على فوّهته وهي موجهة الى القبلة ثم شرعت المرأة المكلفة بالتصفيح في احداث سبعة جروح صغيرة ومتوازية، ثم التقطت حبة زبيب وغمستها في الجرح الأول الى أن غُمرت بالدماء ووضعتها في فم الفتاة حتى تبتلعهما بالماء، وتكررت العملية سبعة مرات وفي كل مرة على الفتاة أن تقول: "**أنا خيط وولد الناس حيط**"، وبعد إتمام ذلك، تأخذ المرأة المكلفة بالتصفيح رماد الفحم من الكانون وتمرره على الجروح وذلك لإحداث "وشم" على ركبة الفتاة يبقى حتى إعادة عملية الجرح والتي تسمى "الفتح" ليلة الزفاف والمتمثلة في إعادة نفس المراحل بطريقة عكسية تماما، وعكس القولة المصاحبة للعملية ، اذ على الفتاة المصفحة أن تردد: "**أنا خيط وولد الناس حيط**".

ملاحظة: في هذه المقابلة، نفت المرأة ما قيل في مقابلات أخرى عن ضرورة أن تفتح الفتاة على يد نفس المرأة، اذ أكدت أن ابنتها قد اضطرت الى فتح نفسها بنفسها شريطة أن تجلس أمام المرآة، كما يتم تعويض حبة الزبيب بحبة قمح او تمر أو حتى قطعة سكر، مع اجبارية عقد النيّة والاعتقاد في هذه الطقوس كشرط من شروط إنجاح عملية التصفيح.

➢ التصفيح بالقفل

جاءت هذه الطقوس التي تعتمد على "القفل" في تصفيح الفتاة في شكل روايتين:

الأولى كانت من امرأة تدعى "زكية" تعمل بحمام وهي أصيلة عين دراهم وتقطن بسوسة، ذكرت ما يلي: يُؤخذ القفل مفتوحا ويُدار حول الركبة اليمنى للفتاة المراد تصفيحها، ثم يُقفل وتقول الفتاة: "**أنا حيط وولد الناس خيط**"... وتتكرر هذه العملية سبع مرات. بعد ذلك يجب

---

(6) امرأة تشرف على مقام الولي الصالح 'سيدي إبراهيم الرياحي' بالمدينة العتيقة، بتونس العاصمة أجريت معها المقابلة بتاريخ 12 جوان 2017

أن يُحتفظ بالقفل ذاته الى ليلة الزفاف الت يتعاد خلالها العملية عكسية (الركبة اليسرى عوضا عن اليمنى، القفل مغلقا ثم يُفتح مع القول: "**أنا خيط وولد الناس حيط**". وأكدت المرأة عن تجربة شخصية على أهمية القفل الذي وقع استعماله في هذه العملية. اذ يُحتفظ بنفس القفل الى حين ليلة الزفاف، وفي حالة ضياعه، يعصب حل الفتاة ويكاد يصير مستحيلا، وفي حال حدوث ذلك، تُؤخذ الفتاة الى "عرّاف " قصد "العزيمة" والتي تتمثّل في أقوال وتماتم وماء للشرب... حتى تُفتح الفتاة ويتمكّن زوجها من فضّ بكارتها.

أما الرواية الثانية، فهي لامرأة طاعنة في السن تقطن بالمدينة العتيقة وأصيلة منطقة "طبرقة"[7]، وتتمثّل في أخذ القفل مفتوحا ووضعه بين فخذي الفتاة التي تردد المقولة السابقة سبع مرات، ثم يتم اغلاق القفل والاحتفاظ به الى حين ليلة الزفاف، التي تُعاد خلالها العملية بطريقة عكسية، يكون خلالها القفل مغلقا ثم يُفتح.

ملاحظة: يجب أن يتم ردم القفل تحت شجرة، في مكان يصعب اكتشافه، وذلك حرصا على ألا يقع استعماله في أغراض أخرى وكعرقلة للمرأة على الانجاب أو السحر والشعوذة.

- **التصفيح بخيط "النيرة "[8]**:

خلال مقابلة مع مبحوثة[9]، تحصبنا على مراحل التصفيح بخيط النيرة، حيث يُؤخذ هذا الخيط ويُقاس على طول الفتاة، ثم يُحرق بالنار إلى أن يصير رمادا، ليُؤخذ هذا الرماد ويُخلط بالعسل لتأكله الفتاة وتردّد سبع مرات: "**أنا حيط وولد الناس خيط**" أو يقع خلط

(7) امرأة أصيلة مدينة طبرقة وتقطن بالمدينة العتيقة بتونس العاصمة كانت تمارس طقوس التصفيح على الفتيات، أجريت معها المقابلة بتاريخ 3 مارس 2017 بمنزلها

(8) خيط النيرة: هو الخيط الذي يوجد بالمنسج الذي يصنع منه الأغطية والملابس الصوفية، وهو الخيط القاعدي في عملية النسج.

(9) امرأة من اللاتي يمتهنّ ممارسة التصفيح على جسد الفتاة وهي تشتغل بفرقة نسائية للغناء أجرينا معها المقابلة بتاريخ 14 أفريل 2017 بمنزلها

الرماد في كأس من الماء لتشربه الفتاة مرددة نفس القولة السابقة. وفي ليلة الزفاف يُؤخذ خيط نيرة، ويُقاس به طول الفتاة ثم يُحرق وتُعاد نفس عملية القفل الرمزي معكوسة.

➢ **التصفيح بالمنسج:**

يتم استعمال منسج دون خيوط "نيرة" ويوضع بطريقة قائمة، وموجها نحو القبلة، لتمر من خلاله الفتاة ويُركّب خيط النيرة الأول، وتقول الفتاة: "**أنا حيط وولد الناس خيط**"، وتُعاد العملية سبع مرات إلى أن تُثبّت سبع خيوط في المنسج. وفي ليلة الزفاف، تُعاد العملية المذكورة عكسيا، اذ على الفتاة المُقبلة على الزواج أن تدخل المنسج من الاتجاه المعاكس لتُركّب سبع خيوط وتردد: "**أنا خيط وولد الناس حيط**". كل هذا مع ضرورة توفر النيّة.

5.2.التصفيح بالصندوق:

يُغلق الصندوق بواسطة قفل، موجها للقبلة، وتجلس الفتاة فوقه مرددة سبع مرات: "**أنا حيط وولد الناس خيط**". وفي ليلة الزواج، على الفتاة أن تجلس فوق الصندوق عينه مردّدة القولة بطريقة معاكسة ثم يُفتح الصندوق.

3.العناصر المكونة لكل عملية تصفيح:

1.3. التصفيح بإحداث جروح متوازنة:

- امرأة متقدمة في السن
- مهراس نحاسي قُلب على فُوّهته
- استقبال القبلة
- الفتاة لم تتجاوز سن البلوغ
- ربط الفخذ لحصر الدم
- شفرة حلاقة غبر مستعملة

- 7 حبات زبيب أو سكر أو تمر أو قمح أو فول
- القولة: أنا حيط وولد الناس خيط
- سواد الفحم أو رماد

➢ **التصفيح بالقفل:**

- **الطريقة الأولى:**

- امرأة متقدمة في السن، لأن هذه العادة تُعتبر من الرواسب القديمة لا يحترفها الا المتقدمات في السن ذوات الخبرة.
- قفل مفتوح ليُدار على ركبة الفتاة
- تكرار العملية 7 مرات
- تكرار القولة 7 مرات: 3أنا حيط وولد الناس خيط"
- توفر النيّة والاعتقاد
- استقبال القبلة
- فتاة لم تتجاوز سن البلوغ
- امرأة متقدمة في السن

- **الطريقة الثانية:**

- استقبال القبلة
- النيّة
- قفل مفتوح
- تكرار القولة 7 مرات: "أنا حيط وولد الناس خيط"

- **التصفيح بخيط النيرة:**

- خيط النيرة
- رماد خيط النيرة
- ترديد القولة 7 مرات: "أنا حيط وولد الناس خيط"
- النيّة
- الاعتقاد في ذلك
- امرأة متقدمة في السن
- فتاة لم تتجاوز سن البلوغ

- **التصفيح بالصندوق:**

- فتاة لم تتجاوز سن البلوغ
- صندوق مغلق
- استقبال القبلة
- ترديد القولة 7 مرات: "أنا حيط وولد الناس خيط"
- امرأة متقدمة في السن
- النيّة

- **التصفيح بالمنسج:**

- فتاة لم تتجاوز سن البلوغ
- امرأة متقدمة في السن

- منسج مُوجّه نحو القبلة
- 7 خيوط نيرة
- ترديد القولة 7 مرات: "أنا حيط وولد الناس خيط"

4.رمزية العناصر المكونة للبنية النسقية للتصفيح:

الأدوات	الرمزية
الزبيب/التمر الخيط القفل	*رمز الخصوبة والتكاثر: حسب معجم "الرموز الإسلامية" التمر هو رمز "الغناء"، العذوبة والثراء (10) *رمز ذكر الرجل *رمز الغلق أو فيه غلق لشيء لتضمن ما بداخله من اتلاف، لأي ضمان وتحصين، وكذلك رمزية الاتقان للشيء *له كذلك رمزية الفتح وهى القبول بالشيء والعرض وفيه عدم الاحتفاظ بالشيء وجعله في متناول الجميع
الركبة	محاكاة لركبة الرجل لإنجاح العملية السحرية
اللغة	الرمزية
الحيط	رمز الحماية والتأمين ضد الهجومات الخارجية (هذا في الغلق لتصبح امرأة محميّة)/ رمز القوة والصلابة (هذا في الفتح ليصبح الرجل قوى)

(10) Chebel(M), Dictionnaire des symboles musulmanes, Paris, Extrait de livre de Ibtisem Ben Dridi.

الخيط	*رمز الارتخاء، فالرجل خيط يعني جنسيا ضعيف وغير قادر على معاشرة فتاة مصفحة وإقامة علاقة جنسية معها *عند الغلق وهنا يُقصد بوصف الرجل رمز الارتخاء فالمرأة هنا هي الضعيفة والمفعول بها هذا في الفتح)
الأمكنة والاتجاهات	الرمزية
*زاوية *القبلة *النيّة	*روحانية *اتجاه الصلاة ورمزية روحانية للتقرب من الله نيّة الشروع في العمل والقيام به

المصدر: العمل الميداني للباحثة

- **الاعتقاد في ظاهرة التصفيح شرط لحماية عذرية الفتاة:**

ان الاعتقاد في ظاهرة التصفيح ضرورة قصوى لتحقيق الجدوى الرمزية باعتبارها أحد العناصر المهمة المكوّنة للبنية النسقية للظاهرة. فأسباب الاعتقاد فيها مترسخ في لا وعى الأفراد وقد ثبت ذلك بتحليل مدى اعتقاد بعض النساء المحترفات لهذه الظاهرة أن الأسباب تعود الى التجارب الملموسة التي عايشوها ويمكن أن نذكر تجربة امرأة عايشت حالة ابنتها وما يؤكد لديها مصداقية المسألة أن ابنتها التي شاءت الأقدار والظروف بأن تتزوج في السعودية وقد صفّحتها قبل بلوغها ولكنها لم تجد هناك من يفتح لها التصفيح فغامرت بذلك ودخل بها زوجها ولكنه لم يستطع أن يُقيم معها علاقة جنسية وظلت لأسبوع على هذه الحالة، الى أن نصحتها امرأة متقدمة في السن تحترف هذه الممارسة بأن تجلس أمام مرآة مُستقبلة القبلة وعاقدة النيّة وتفتح نفسها بنفسها. وقد أخبرتني بأنها منذ ذلك الوقت ازداد

اعتقادها في هذه المسألة أكثر من قبل. كما حدثتني امرأة أخرى عن الخطأ الذي حدث في عملية تصفيح، فأبنتها تم تصفيحها بالسكر وليلة الزفاف وقع فتحها رمزيا بالزبيب وعندما دخل عليها زوجها لم يستطع فض بكارتها فحدثت إشكالات عديدة مع عائلة الرجل الى أن وقع اعتماد السكر لفتحها. إضافة الى امرأة أخرى حدثتني عن حدتها التي كانت مصفحة وامها أيضا كذلك، وكانت تصر على أن تعلمها لبناتها ليصفحن بناتهن في المستقبل.

من خلال هذه المقابلات استخلصنا مدى اعتقاد هؤلاء النسوة التي تتكون من عناصر رمزية تُشكّل بنية نسقية مترسخة في لا وعى الأفراد رغم أن هذه الطقوس وقع توارثها عبر أجيال. أما الفتيات اللاتي موست عليهن هذه الطقوس فقد كانت المواقف متنوعة لكن غلب على هذه النظرة طابع الاعتقاد والايمان بمصداقية الظاهرة، فقد تعرضنا من خلال المحادثات الميدانية الى فتيات كن في الظاهر لا يعتقدن في هذه الطقوس ولا يُؤمن بها فمنهن من تعتبرها شعوذة أو "عادات وتقاليد قديمة" وهناك من ترجعها الى للصحة وأن هذه الممارسات الغريبة لا يمكن اثباتها علميا. ولكن عند مواصلة المحادثة والاستفسار حول ما إذا كانت ستُفرض ليلة الزفاف ممارسة طقوس الفتح الرمزي فالإجابات كانت "**بلا لن أغامر بذلك سأفتح التصفيح**" وهنا نستنتج اعتقادهن الخفي في الظاهرة وإذا بدا لنا عكس ذلك، وخو ما يعكس التأثير الرمزي أو الجدوى الرمزية لهذه الظاهرة المتمثلة في بنية نسقية مترسخة في اللاوعي.

- **البنية النسقية والنجاعة الرمزية لطقوس التصفيح:**

لئن صنفنا هذه الممارسات الطقوسية ضمن الظواهر السحرية التي تعتمد على التقليد والمحاكاة، فإنه بإمكاننا أن ندعم ذلك باستخراج العناصر المكونة للبنية النسقية للظاهرة الموظفة لطقوس التصفيح. وذلك لدراسة البنية التحتيّة اللاشعورية حسب كلود لوفي ستروس والاقرار بقيمة وضع الكيانات ضمن عناصر النظام أو ما يتعلق بالعلاقات التي تتجمع وتتعارض من خلالها كما يُبيّن كلود لوفي ستروس فتستدعي هذه الممارسات أولا ضرورة الاعتقاد فيها والايمان بها ليتم استيعابها وترسيخها في اللاوعي كضرورة لنجاحها، وفي

الاعتماد على موضع الركبة لتصفيح الفتاة بإحداث جروح متوازية أو تدوير القفل، كما تم توضيح ذلك سابقا، وهذا يتماشى مع مبدا السحر القائل حسب فرايزر: "**كل شبيه يستدعي شبيهه**". فبما أن القوة الجنسية للرجل ترتكز بالأخص في ركبتيه، تمارس هذه الطقوس على ركبة الفتاة في حالة الغلق الرمزي أو الفتح الرمزي محاكاة لركبة الرجل. وذلك يتطلب شرط الاعتقاد في أن إتمام العملية الطقوسية السحرية على الفتاة سيؤثر حتما على الرجل كما تتواصل هذه العملية بغمس الزبيب بالدم الذي يسيل من ركبة الفتاة رمزا لدم العذرية. كما ترافق هذه الممارسات قولة تتكرر في كل عملية تصفيح، وهي "**أنا حيط وولد الناس خيط**"، فهذه المقولة مُحمّلة بأبعاد رمزية تتمثّل في أن الحيط رمز للحماية والتأمين ضد العوامل الخارجية، ويرمز للصلابة والقوة وصعوبة الاختراق، اما الخيط فيحمل رمزية الارتخاء والمرونة فعندما تقول الفتاة "أنا حيط" فهى القويّة وغشاء البكارة مثل الحائط الذي أي غير قابل للاختراق من قبل ذكر الرجل وعند قولها "ولد الناس خيط" أي أنه ضعيف جنسيّا ولا يقدر على فظ بكارة فتاة مصفحة. اما في عملية الفتح الرمزي فيجب على الفتاة أن تعكس القولة لتصبح: "أنا خيط" أي أنها تصبح مرنة ومرتخية وقابلة لأن يلج ذكر الرجل بكارتها. وعندما تردد ولد الناس "حيط" أى أنه اتخذ صلابة الحائط، إضافة الى ضرورة توفر النيّة وهي نيّة القيام بطقس التصفيح لتحتفظ الفتاة على شرفها وبالتالي شرف العائلة، والنيّة هي عنصر رمزي في علاقة ببقيّة عناصر النسق، التي يجب توفرها لتحقيق استمراريتها لتحدث الجدوى الرمزية.

اذا، فكل هذه العناصر الرمزية المكوّنة للبنية النسقية لظاهرة التصفيح تتميّز بنظام علائقي فيما بينها، فإذا غابت أحد العناصر، سيتعطل النسق ولن تحدث الجدوى، فمثلا اذا نسيت المرأة أحد المراحل التي تعتمدها في طقوس التصفيح، كنسيان القولة أو الخطأ في ترديدها أو احداث جروح في مكان بعيد عن موضع الركبة، فإن العملية ستكون دون فاعلية، فالمرأة التي حدّثتنا عن غلق ابنتها بالزبيب ثم تم فتحها بالسكر لم تتم بذلك عملية الفتح الرمزي، وحدث لها اشكال لعدم قدرتها على ولوج ذكره في عضوها التناسلي، وبالتالي لم يقدر

على فض غشاء البكارة . يمكننا أن نستنتج أن طريقة التصفيح ومراحلها هي بنى منظمة في شكل قواعد ترسخت في لا وعى النسوة اللاتي يحترفنها ويمارسنها بطريقة تبدو واعية. تحمل هذه العناصر رموزا تعيد حسب كلود لوفي ستراوس "تنظيم التجربة المحسوسة وسط منظومة دلالية" تلعب دورا مؤثرا على الجانب النفسي للفتاة لارتباط حياتها الجنسية بجهازها العصبي، فتستوعب الفتاة هذه الممارسات الرمزية باعتقاد شديد فحتما ستحدث انفعالات نفسية تؤثر في أعضاءها الجنسية، فكلما ارتفعت درجة تأثير هذه الممارسات على نفسية الفتاة والتصديق بها، كلما أثر ذلك على جهازها العصبي وتحدث أعضاءها ردة فعل وتتقلص أعضاءها الجنسية وتجعلها غير قابلة للاختراق من قبل الرجل وبالتالي لن يحدث الولوج ولن يتمزّق غشاء البكارة.

ثالثا: التصفيح ممارسة طقوسية من طقوس حماية الى تقنيات الانفلات من الرقابة

- **تقليص الرقابة:**

ان الغاية الأساسية للعائلات التونسية من تصفيح بناتهم هو الحفاظ على شرف العائلة المتمثّل في عذرية هذه الفتاة. فهذه الممارسات الطقوسية تعتبر ضامنا مهما لتحصين غشاء البكارة وبالتالي تقليص الرقابة الاجتماعية على الفتاة وما يدفع بهؤلاء النسوة للجوء الى هذه الظاهرة هو عقاب المجتمع لكل فتاة فقدت عذريتها خارج إطار الزواج ونهايتها المأساوية على يد اخوتها أو أبيها فتقول احدى المستجوبات "**لماذا نغامر بشرف العائلة والحل بأيدينا لا يكلفنا شيء**"[11] فبالرغم من بساطة العملية الطقوسية للتصفيح فهى غير مكلفة الا أنها تنقذ العائلة من الانحطاط الاجتماعي المتمثّل في المهانة والعار الذي يلاحق العائلة عبر أجيال. كما أن هناك من يعتبر أن الرقابة شبه الدائمة شبه مستحيلة، ففي القديم كانت الفتاة تخرج لجلب الماء وفلاحة الأرض فهي عرضة للاغتصاب لذلك الأضمن هو تصفيحها

(11) مستجوبة سابقة وهي مشرفة على ضريح مقام الولي الصالح سيدي بوراوي بمدينة سوسة من الجمهورية التونسيّة، أجرينا معها المقابلة بتاريخ 30 أفريل 2017

ولكن في عصرنا هذا تغيّرت الظروف المعيشيّة للفتاة وأصبحت تذهب الى المدرسة والمعهد ثم تواصل دراستها الجامعية بعيدا على مسقط راسها لذلك يجب تصفيحها ويعود ذلك الى قلة الرقابة على الفتاة فـ:ان التصفيح أصبح يُعوّض الرقابة الا أن هذا الضامن الرمزي من الممكن أن يُمثّل لها منفذا منه لتطلق العنان لحياتها الجنسية الطبيعية دون ان تحصل لها أية مخاطر بيولوجية كفقدان غشاء البكارة.

- **تقنيات الإفلات من العقاب**

➢ **الحياة الجنسية للفتاة:**

في هذه المرحلة لا بد لنا وفي حدود معرفتنا العلمية من الإشارة الى أن الحياة الجنسية التي يقصد بها في هذا البحث هي ليست العلاقات العابرة بين رجل وامرأة فقط لبلوغ الرغبة الجنسية فحسب، ولكن المقصود هنا هي محاولة الرجل أن يخترق غشاء بكارة الفتاة، وان يُولج عضوه التناسلي في العضو التناسلي للأنثى ويكون راغبا في ذلك وقد تعرضنا في هذا البحث الى تجارب مختلفة في هذا المجال لفتيات وقع تصفيحهن لحماية شرفهن أي الحماية البيولوجية لغشاء البكارة فاعتمدنا على ذلك كركيزة أساسية تؤمن لهن معاشرة جنسية دون أن تترك بذلك أثرا أو خسارة اجتماعية كإهدار الشرف ومعاقبة المجتمع لهن وللعائلة.

- **التجارب الجنسية والاعتقاد في التصفيح:**

لقد خرجت ظاهرة التصفيح من مفهوم الحماية الرمزة لغشاء العذرية للفتاة لتتخذ لبوسا جديدا من خلال تمثلات الفتيات لقيمة هذه الممارسات الطقوسية التي تختلف عن تصورات النسوة اللاتي يقمن بتصفيح بناتهن للحفاظ على شرف الفتاة وبالتالي شرف العائلة والتقليص من الرقابة الاجتماعية الا أنه في تمثلات الفتيات تضارب مع ما تصبو اليه العائلة والمجتمع. فالتصفيح بالنسبة لهن عادات طيّبة تسمح

لهن بالانفلات الاجتماعي والأخلاقي دون خسائر بيولوجية فالعذرية بالنسبة لهن ينحصر مفهومها في غشاء البكارة المادي، على عكس ما صرحت به الفتيات المصفحات اللاتي يعتبرن ان مفهوم العذرية لا يقتصر على غشاء البكارة فحسب و انما تشمل كامل الجسد البكر وما وقع ممارسته على أجسادهن من طقوس هي لا تعني لهن شيأ ولا يحاولن أن يختتمن هذه العمليات لخوض تجارب الجنس هذا ما يتناقض مع ما تحصلنا عليه من تصريحات بعض المستجوبات المصفحات. فالمستجوبة أصيلة مدينة طبرقة تعد مصدرا مهما من خلال حديثها عن تجربتها الجنسية بمجرد اعلامها بأنها مصفحة من قبل جدتها، فلم تتردد عندما أعلمها رفيقها بالرغبة الشديدة في إقامة علاقة جنسية معها وعند لقاءها به كانت رغبتها جامحة لخوض هذه التجربة خصوصا وانها تعلم بأنها مصفحة وسوف لن يحدث لها شيء. حيث صرّحت: "لقد فوجئ رفيقي بعدم قدرته على اختراق غشاء البكارة ليحدث الولوج"(12) فاستغرقت وقتا طويلا لإقناعه بعملية التصفيح وعندما ذهبت الى الطبيب للتأكد من سلامة بكارتها وجدت انها عذراء ولم تفقد عذريتها، وبذلك تتأكد في هذه التجربة الجدوى الرمزية لعملية التصفيح. فالفتاة هنا سوف تحافظ على نزول دم البكارة ليلة زفافها كرمز للشرف دون أن يعلم أحد بما قامت به من تجارب جنسية قبل ليلة زفافها وهنا تغيب الرقابة الاجتماعية ويعود ذلك الى ممارسات عملية التصفيح التي تسهل عملية الانفلات الأخلاقي بدرجة أولى والانفلات الاجتماعي بدرجة ثانية. أما المستجوبة (ن-ر) أصيلة الساحل تحدثت على أول علاقة جنسية قامت بها خارج اطار الزواج فرغم محاولة الطرف الآخر أن يقوم بعملية الولوج واختراق غشاء البكارة الا أنه لم يستطع أن يفتض بكارتها فأعجبت بالفكرة وتأكدت من جدوى التصفيح ومنفعته الا أنه وفي التجربة الثالثة أي المعاشرة الجنسية الثالثة فقد تمكن من عملية الولوج ، حيث صرحت :"لقد ارتبكت كثيرا و انتابتني الحيرة خاصة عندما لم ينزل الدم فكلانا متأكد

(12) طالبة بكليّة العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس العاصمة أجريت معها المقابلة بتاريخ 1 مارس 2017

من عملية المجامعة الا أنني لم أتجرأ على زيارة الطبيب خوفا من الصدمة ولكن عندما ذهبت الى القابلة في أحد المراكز الصحية أكدت لي بأنني عذراء الا أنني ما زلت خائفة وغير مطمئنة ولم أعد الكرة منذ ذلك الوقت"(13). هذه الشهادات من بعض الفتيات اللاتي خضن تجارب جنسية من شأنها أن تُحوّل مفهوم ظاهرة التصفيح من الحفاظ على شرف الفتاة وبالتالي شرف العائلة، الى تقديم منفذ للفتيات حتى يتمكّن من الانفلات الاجتماعي بما أنها لن تفقد عذريتها ولن يعاقبها المجتمع فهى ستظل محتفظة برمز عفّتها كدليل مموّه لعدم احتكاكها جنسيا بأى رجل قبل زواجها.

خاتمة:

تحدث فاعلية طقوس التصفيح من خلال درجة التصديق بها والاعتقاد في جدواها وفاعليتها، إذا فالنجاعة الرمزيّة ناتجة عن تلك النسقيّة اللاواعية المترسّخة في ذهن الأفراد وتمثّلاتهم، حيث يرتبط ذلك ارتباطا وثيقا بالجهاز العصبي للفتاة فهو المتحكّم في أعضائها الجسديّة وحالتها النفسيّة وبالتالي في العمليّة الجنسيّة. أي أنّه عندما تمارس الفتاة الجنس وهي خائفة أو تحت ضغط اجتماعي أو في اعتقادها الشديد بأنها مصفّحة فذلك سيتحكّم آليا في عمليّة تقلّص أعضائها التناسليّة وتشنّجها وتصبح غير مؤهّلة لولوج العضو الذكري للرجل، أو أن تحدث عمليّة عكسيّة بتمدّد العضلات وممارسة الجنس بشكل مريح نفسيّا، خصوصا عندما يكون في إطار الزواج أو بعيدا عن الرقابة الاجتماعيّة، وبالتالي قبول الفتاة بهذه العلاقة وحدوث عملية الاتصال الجنسي بالولوج وتمزّق غشاء البكارة لنزول دم العذريّة وهو ما يفسّر عمليّة فتح التصفيح.

ومن خلال التقدم في البحث والدراسة، تبيّن ان ممارسة التصفيح يتناقض مع ما تصبو اليه العائلات ضمنيا؛ فهو لا يمكن أن يمنع الفتاة من خوض تجارب جنسية بل

---

(13) طالبة بالمعهد العالي للعلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس أجريت معها المقابلة بتاريخ 2 فيفري 2017

أصبح يمثّل لها منفذا للافلات من الضغط الاجتماعي للعائلة حسب تعبير ايميل دوركايم نظرا لكون هذه الطقوس سوف تحميها من فقدان غشاء البكارة وأيضا تمنحها هامشا من الحريّة الجنسيّة.

نستنتج أن التصفيح تغيّرت وظيفته الاجتماعية بشكل لامرئي ليلعب أدوارا عكس ما تطمح اليه العائلة. فالحماية ترتبط من خلال التصفيح بالعامل البيولوجي فقط الذي من شأنه أن يقدّم الدليل على سلامة عذرية الفتاة، لكنه يدعم يشكل واضح التقليص من الضغط الاجتماعي وفق مفهوم ايميل دوركايم. من شأن ذلك أن يضع مسألة الشرف موضع مساءلة لما يعتريه من ريبة وشك ومغالطة.

Bibliographie

ansart, P. (1977). *idéologies conflits et pouvoir.* france: presses universitaire de France .

ben dridi, i. (2004). *la protection de la virginité féminine.* paris: harmatan .

Lévi-Strauss , c. (1958). *anthropologie structural .* paris: plon.

quivy, R. (2003). *manuel de recherche en sciences sociales* (éd. 2). paris: dunod.

sanchez, P. (2007). efficacité symbolique de la magie. *travaux e sciences sociales*, 433-464. Récupéré sur https://www.cairn.info/la-rationnalite-des-croyances-magiques--9782600003667-page-433.htm

بيار إيزرار بونت. (2007). *معحم الاثنولوجيا والانتروبولوجيا* (الإصدار 1). (الصمد مصباح، المترجمون) بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

داميا الماطري بن خويا. (1995). *الجسد الأنثوي.* الدار البيضاء: نشر الفنك.

عبد الوهاب بوحديبة. (2000). *الجنسانية في الاسلام.* (محمد علي مقلد، المترجمون) تونس: دار سيراش للنشر.

غوستاف لوبون. (2012). *الآراء والنعتقدات.* (عادل زعيتر ، المترجمون) المملكة المتحدة.

فاطمة المرنيسي. (2006). *ماوراء الحجاب* (الإصدار 3). (أحمد صالح، المترجمون) دمشق: دار حوران.

منصف المحواشي. (2010). الطقوس وجبروت الرموز قراءة في الوظائف والدلالات ضمن مجتمع متحول. *إنسانيات*، 43-15. doi:https://doi.org/10.4000/insaniyat.4331

ياسين بوعلي. (1978). *الثالوث المحرم دراسات في الدين والجنس والصراع الطبقي*. بيروت: دار الطليعة.